النتاج الجديد

معالم الحياة العربية الجديدة

للدكتور منيف الرزاز

منشورات دار مصر للطباعة

لا شك ان كثيرين مثلنا كانوا ينتظرون منذ زمن بعيد ظهور كتاب ككتاب « معالم الحياة العربية الجديدة » ، الذي ظهر منذ شهر ونيف ونال الجائزة الأولى في مسابقة جامعة الدول العربية عن مشاكل العالم العربي السياسية والاقتصادية والاجتماعية لعام ١٩٥٣ . فهو لون مشرق من ألوان الفكر الذي يتعرض لحياتنا القومية ، والذي طالما تقنا الى رؤية ثماره وطالما عجبنا لاحتجابه وكمونه في آونة كلٌّ ما فيها ينضح بالحاجة الى مثل هذا الفكر القومي ونحن الى رشف نداه ، بعد جدب مرير .

وكثيراً ما أتيح لنا ان نعبّر عن هذه الحقيقة وهي ان حياتنا القومية لن ترسخ جذورها ولن نطمئن الى مصيرها ما لم نجد صداها في ادبنا وفلسفتنا وفننا وجميع مجالي إنتاجنا ، وان في حياتنا القومية الحديثة اليوم ما هو قمين بان يهز الأقلام ويحرّك العبارات ويلهم الأفكار . والعجيب كل العجيب ماهو ان يظهر كتاب كالكتاب الذي نحن بصدد الحديث عنه ، بل ألا تظهر مئات من الكتب مثله تعالج ما يعالج وتصدر عن مثل ما يصدر عنه من سهر قومي وحرقة فكرية ! ولاي غاية تحيا الاقلام إن لم تقبس من قلب الحياة ، حياة الامة ، مدادها ورجفتها ؟ وما عسى ان يلهب النفوس إن كانت تمرّ بمآس اجتماعية تواجهها كل يوم مرور العابر السامر ؟ إن هنالك معايير كثيرة دون شك نستطيع ان نسبر بها حساسية النفوس وحظها من التأثر ونصيبها من الغنى الروحي. ولكن لعل احسن مسبار هو هذا المسبار الذي نتعرف به على غزارة النفوس وقدرتها على التحسس عن طريق ما تثيره لديها حياتها الاجتماعية من مشكلات وما تخلقه من تساؤلات ورغائب . وإنك لتعرف حيوية الامة من تلك الثورات المشبوبة التي تعج بها نفوس ابنائها حين تواجه حياتها القومية ، كما تعرف نضوبها ووهنها من تلك النظرات المقرورة السادرة التي يلقونَ بها اوضاع مجتمعهم ومآسي شعبهم .

والكتاب الذي نحن بصدده يمتاز أول ما يمتاز بهذه الروح المتسائلة التي لا تمر بالمشكلات مر الكرام ، وانما تقف عند كل واحدة منها ، تسائلها، وتنقب فيها وتكوّن عنها في نهاية الامر فكرة ورأياً واضحاً . إنها تطرح مشكلات تبدو بديهيات ، وتعالج اموراً تبدو مكرورة معادة ؛ وفي هذا تثوي قوتها : أو ليس الفرق بين النظرة العامية والنظرة العلمية ان النظرة العامية تعتبر كل شيء طبيعياً وبديهياً لا يحتاج الى بحث ، فلا يخطر على بالها ان تجعل من سقوط الاجسام مشكلة ومجالاً لبحث ، ومن طفوّها مشكلة ، ومن الحركة مشكلة ومن الزمان مشكلة و ... على حين ان النظرة العلمية تتساءل عن كل شيء ولا تعتبر ان هنالك شيئاً لا يحتاج الى التفسير والايضاح . ولولا هذه الروح العلمية التي ترى المشكلات حيث لا يرى العامي شيئاً ، لما اتيح لنا مثلًا ان نرى أبحاثاً في « الاحلام » كما فعل « فرويد » او في « زلات القلم واللسان » ، ولاعتبرنا الحلم حلماً وكفى ، وزلة اللسان زلة لا اكثر ، والماء ماء والهواء هواء .

والحق ان هذه المشكلات التي يتعرض لها الكتاب ، اعني مشكلات الحياة العربية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وما يتبعها من فروع، مشكلات تتصف بطابع متناقض في ظاهره: فهي معادة مزجاة ، وهي بكرٌ لم تعالج هي معادة مزجاة إن اعتبرنا تلك الاحاديث التافهة حيناً ، والمنحرفة حيناً آخر ، والمبتورة حيناً ثالثاً ، التي يفوه بها بعض السياسيين والخطباء والدعاة ، معالجة لمثل هذه المشكلات .. وهي بكر مجهولة إلى حد كبير ، ان نظرنا الى الأمر نظرة اعمق ، وعنينا بالمعالجة المعالجة العلمية الواضحة . واخطر المشكلات وأشدها حاجة للمعالجة العلمية في الواقع ، هي مثل هذه المشكلات التي تبدو لبعضهم في غنى عن ان تعالج ، وتبدو لبعضهم الآخر مضغة في الافواه لا يحتاج الحديث عنها إلى فضل علم او زاد من بحث . ذلك انها لشدة معرفتها مجهولة ولكثرة ذيوعها مهملة . واخوف ما يخاف ان تشيع معالجة لهذه المشكلات ليست بالمعالجة المنهجية العلمية ، فتسير بين الركبان وتتلقفها الألسن ، وتأخذ الأفكار قالبها واتجاهها، فاذا ما تتصف به هذه المعالجة من خطل وانحراف يصبح لاشتهاره ، مقبولاً بل بديهياً لا يحتاج الى نقاش ، وإذا بالعقول تألف مجموعة من الافكار الخاطئة حول هذه المشكلات،

فتعشش فيها وتفرّخ ، حتى يستعصي على المصلح اقتلاعها . ولا عجب فنفوس الجماهـــير في حاجة دوماً الى حـلول لمثل هذه المشكلات ، فان لم تجد من يقدم لها الحلول الصحيحة ، لقفت الخاطيء ورضيت به وبنت على اساسه تفكيرها وربيت على قيمه ، وهكذا لا يلبث ان يغدو فكرها ، الذي يفترض فيه ان يصحح الخطأ ، هو الخطأ نفسه ؛ كمثل الطفل يتساءل عن بعض الامور ، ولكن كثيراً من الآباء يقدمون له اجوبة خاطئة ، يقبلها لأنه في حاجة إلى جـواب ، وكثيراً ما تسيء مثل هذه الاجوبة الى تكوينه الفكري وتخلق لديه أنماطاً من السلوك العقلي تظل تعمل كطفيليات في تفكيره عامة .

ولا ادل على ما نقول من ان كثيراً من الامور التي يقرها الكتاب ويدافع عنها ، والتي هي من الحقائق النهائية في الفكر العالمي ، من مثل حرية الافراد وحرية العمل الحزبي وضرورته والحياة النيابية وضرورتهـــا ، هي في نظر بعض ابناء مجتمعنا العربي ، بـــل بعض المثقفين من هؤلاء ، مسائل تحتمل الجدل والنقاش إذلك ان بعض النزعات المغرضة وبعض الافكار الواهنة ما طفقت تبث ، منذ عهود ، مثل هذه الشكوك في مثل هذه القيم النهائية ، حتى ربّت بعض العقول مثل هذه التربية وجعلتها تجادل فيما لا يحتمل الجدال . وإن ننس فلن ننسى « فضائل » الاستعمار بهذا الصدد وما دسه من سموم حاولت التشكيك في مثل هذه المباديء البديهية في الحياة القومية .

إن الكتاب ينطلق من نقطة ارتكاز اساسية وهي اعتبـار تفتيح إمكانيات الفرد العربي الاساسي الذي ينبغي ان نتوجه إليه في حياتنا القومية . ومثل هذا التفتيح يستتبع حظاً من الحرية ، لا يتنافى طبعاً مع غايات المجتمع الكبرى ، وتنظيماً اقتصادياً اشتراكياً يفسح المجال امام كل فرد ويتيح له ان يعبّر عن إمكانياته ويحقق استعداداته ، وحياة نيابية صحيحة لا زائفة مبنية على تنظيم حزبي صحيح مستند الى مباديء واضحة . وكل هذه الحقائق بديهية وغير بديهية . بديهية في عرف الفكر العالمي ، وبديهية حين نناقشها مناقشة عقلية حرة غير متأثرة بهوى اونزعة . غير انها غير بديهية حين تغشاها الغواشي وتقبع عليها الرواسب المختلفة ، مثيرة حولها الشبهات . ولا ننكر ان في واقع البلاد العربية ما قوّى مثل هذه الشكوك المغرضة في مثل هـذه القيم الجوهرية : فاساءة فهم الحرية وتعريفها ، وإساءة فهم الحيـــاة النيابية وإساءة تطبيقها ، واستثمار المباديء الاشتراكية استثماراً زائفاً ، كل تلك امـــور خلقت الشك في نفوس بعض الناس وساعدت على نمو تلك البذور الفاسدة التي اطلقها بعض اصحاب الاغراض وحاولوا عن طريقها تهديم مباديء في الحياة القومية والسياسية لم يعد التاريخ في حاجة الى إثبات اصالتها . لذا كان على الكتاب ان يعود الى هذه الافكار من جديد وان يبيّن ، عن طريق بحث علمي متزن متئد ، ان إساءة تطبيق المبدأ لا تعني فساده من اصله ، وان استثماره حجة له لا عليه . وخير ما يدعم به حجته علاجه لهذه المشكلات ضمن السياق الحي للحياة العربية جملة ، لا علاجاً مختزلاً منفصلاً كمشكلات فكرية مستقلة مجردة . إذ يبين كيف ان الحاجة إلى مثل هذه المباديء ، عدا انبثاقها من مقولات الفكر العامة ، تنبثق من قلب حياتنا ومن صميم آفاتنا الحالية وما نشكو منه وكيف ان المسؤول الأول عن آفاتنا هو فقدان هذه المباديء الاصيلة ، مباديء الحقوق السياسية والحريات الفردية . ففي إهمالها يكمن الداء وفيها الدواء .

وبعد ، ليس قصدنا في هـــذه الكلمة ان نطري الاسلوب العلمي الواقعي الذي انتهجه الكتاب ، وان نبيّن مواطن القوة الكثيرة فيه . بل قصدنا ان نطري هذه الومضة من ومضات الفكر العربي ، وان نستثير الاقلام لومضات مثلها وبروق .

دمشق — **عبد الله عبد الدائم**

الدستور والديموقراطيـة

للدكتور صبحي المحمصاني

دار العلم للملايين ، بيروت ، ٢٥٣ ص

يتناول هذا الكتاب ، كما يقول مؤلفه عـــلى الغلاف : « مبادىء القانون الاساسي والعلم السياسي وتطبيقها على لبنان وسائر البلاد العربية » .

وبما ان عرض مواد هذا الكتاب بما فيها من تشعب يخرج عن نطاق المجلات فلا مندوحة لنا عن الاكتفاء بالآراء التوجيهية التي فيه مع الاشارة أحياناً إلى رؤوس الموضوعات .

يرى الدكتور محمصاني في مطلع مقدمته ان « القانون (ما يجب ان تسير عليه الدولة) والواقع (ما تسير عليه الدولة فعلاً) شيئان يترادفان مرة ويتفارقان مراراً » . واتفـاق الواقع مع القانون دليل على رقي الشعوب واختلافهما دليـــل على تأخر

الشعوب . أما البلاد العربية فهي لا تزال في عهد طفولتها السياسية ، ولذلك كان الواقع يختلف فيها من القانون .

وبعد المقدمة يتكلم المؤلف على القانون ومعناه وتعريفه وأقسامه ، ثم على الأمة والدولة والحكومة والشعب وما بينها من أوجه تباين وتقارب ، ثم على مقومات الدولة وسيادتها وما يستتبع ذلك ، ثم على اشكال الدولة التي عرفت في تاريخ الانسان . ولقد أحسن الدكتور محمصاني في نقد نظرية العقد الاجتماعي لجان جاك روسو (ص ١٧-١٨) ، وهي ان قيام الدولة إنما هو تعاقد بين الحاكم والمحكوم ، ذلك لأن هذه النظرية صناعية جداً حتى انها لتدخل في نطاق الخرافة (ص١٨) لاستحالة اتصالها بالواقع . ثم انه فضل عليها نظرية ابن خلدون في « الضرورة الاجتماعية » ، وهي ان الانسان كان يعيش دائماً في نطاق شكل ما من اشكال الحكم ، لأن الانسان مدني بالطبع [كما يقول ارسطو] .

ولقد أحب الدكتور صبحي المحمصاني ، وهو يضرب الأمثلة في ثنايا كتابه من واقع العالم العربي ، أن يكون مسالماً ، فسمّى أشكال الحكم في البلاد العربية المختلفة بالاسماء التي أُطلقت عليها عُرفاً لا بحقيقة الحكم الذي يسود فيها ، ثم بحث فيها على هذا الأساس . ولقد كان يُحسن صنعاً في التوجيه الوطني لو انه فسح مجالاً في صدر كتابه لعرض رأي ارسطو وتقديم الشواهد عليه من ان الدولة يجب ان تسمى بطريقة الحكم فيها لا بالاسم الذي يطلقه عليها صاحبها . ولذلك يسترعي انتباهنا قوله (ص ٢٩) : « من ميزات الجمهورية انها تؤمن بتحديد (بالحاء المهملة) مدة رئاسة الدولة حتى ان بعض الدساتير منعت تجديد (بالجيم) المدة كما في لبنان » . فلبنان آمن بالتجديد وجدد مدة رئيسه مرتين . وعلى هذا لم يكن لبنان جمهورياً قط وتسميتنا لبنان جمهورية ترجع في الحقيقة الى الاسم الذي يطلق على الحكم فيه لا على حقيقة الحكم فيه . ولعل الذي منع المؤلف من ذكر هذه الملاحظة ان كتابه صدر في اوائل عام ١٩٥٢ .

بعدئذ يتناول المؤلف تاريخ الدساتير في الغرب وفي البلاد العربية (ص ٤١ — ٦٨) . وهنا اعود مرة ثانية الى المناقشة لأذكر ان الملكية ليست من الاسلام ، فكيف يمكن ان نقول مثلاً ان المملكة الفلانية دستورها هو الشريعة الاسلامية؟ نحن نستطيع ان نقول ان « مُلْكها ملك صالح » . اما الوراثة في الملك — مع انها وقعت في معظم ادوار تاريخ المسلمين — فانها تتعارض مع المبدأ الاسلامي الاصلي . غير ان المؤلف يصور واقع العالم العربي ولا يصدر احكاماً على اشكال الحكم فيه .

فاذا جاز المؤلف الكلام على واقع العالم العربي الى الكلام على ماهية الدستور واشكاله وعلى نشوء الدساتير وعلى تعديل الدستور والغائه وعلى دستورية القوانين تحرر من اللياقات المفروضة وعرض امامنا موجزاً علمياً عاقلاً ناضجاً لذلك المظهر الراقي في الدولة : « الدستور » . ثم ينتقل المؤلف الى الفصل الخامس من كتابه ليتكلم على حقوق الانسان الاساسية (الحرية الشخصية وحرية الفكر والمساواة امام القانون وحرية العمل) . ويستمر الكتاب في البحث العلمي الناضج فيتكلم على سلطات الدولة المختلفة ، ثم على علاقة السلطة التشريعية بالسلطة التنفيذية خاصة .

وينتهي الكتاب بخاتمة تجمل انتقادات المؤلف على الدولة اللبنانية بعد ان حاول في جميع الكتاب ان يمس دول العالم العربي مساً رفيقاً . وهاك بعض ما قاله في « الخاتمة » (ص٢٣٩ — ٢٤١) : « ان النظام الدستوري اللبناني نظام جمهوري نيابي ديمقراطي برلماني . وان الحكم على هذا الدستور كالحكم على غيره من امثاله يتوقف على معرفة الاسلوب الذي يسير عليه في الواقع ... وينبغي للبنان ان يواجه مشاكله الاجتماعية والسياسية الخاصة .

... ومن أهم هذه العلل والمشاكل الأساليب الاقطاعية والتحزبات الطائفية فالتمثيل النيابي في لبنان تمثيل مبني في كثير من الأحيان على المصالح الاقطاعية والطائفية وعلى النزعات المحلية والشخصية . وان هذه المصالح والنزعات متغلغلة في مسائل الانتخاب والمناصب العامة وغير ذلك من النواحي الحيوية . ولقد رأينا ان الدستور اللبناني من الدساتير الجامدة وأنه صنع اساساً في ايام الانتداب ، وهو وان تعدل في عهد الاستقلال ، الا انه كالثوب البالي لم يعد ينفعه الترقيع بل يعوزه التغيير من الاساس . »

★

إن كتاب « الدستور والديموقراطية » كتاب مهم مفيد . إنه للقارىء العام وللطالب ولكثيرين ممن يعملون في الحياة العامة . ثم هو مرجع قريب ودليل أمين للباحث في هذا

الموضوع الذي يحتاج العرب الى التوسع فيه . ان شكل الحكم في البلاد العربية يحتاج إلى اصلاح ، والاصلاح يحتاج إلى العلم ، والعلم يؤخذ عن رجاله . فحبذا أن يولي العرب امثـــال هذا الموضوع الحيوي شيئاً من اهتمامهم .

عمر فروخ

آلام

ملحمة شعرية للاستاذ نديم محمد

مطبوعات المكتبة الكبرى للتأليف والنشر ، دمشق ، ٢١٦ ص

•

عندما تجلس إلى الشاعر الاستاذ نديم محمد صاحب ملحمة « آلام » هذه، يستولي عليك اعجاب باهر بادبه العميق، وظرفه الناعم ، وفهمه المحيط بقضايا المجتمع وعوائقه ، وفنون الأدب ومشاكله . وأدب الاستاذ نديم ليس من ذلك الادب الموبوء بـ « مكروبات » التبجح والادعاء في شيء . وإنما هو أدب حياة خالدة حرة يغريك بالكد والجد والمثابرة ، لتفكر وتجتهـــد وتعمل ، لا لتحلم وتتمنى . موهماً على نفسك — وعلى الواقع — أن اعذب الشعر اكذبه ، وان الفنون جنون ..

وذكاء نديم الحاد هذا، وثقافته الممتازة ، وانخراطه عقائدياً في صفوف الشعب المتألم ، المرهق ، المغلوب على امره وجهاده الرائع في دنيا الوطنية، ونفسه الكبيرة في غير صلف، واحساسه المرهف، هذه المثل الفاضلة شمخت بشاعرنا، عن حضيض «المادة المدنسة » على عوزه وإملاقه ! فلم تستهوه بهـــارج الحكم ، ولم تستولِ على لبه الوظيفة والمنصب ، وإنما أشاح بوجهه عن هـذه الزوائف كلها غير مكترث ولا ممنون ..

ويأتي دور المرأة بحياة شاعرنا نديم — والشاعر بحكم إحساسه وشعوره شهواني إلى حد ما — فأثر المرأة بحياة الشاعر على حد من الغرابة والتهاويل . فقد أمضى الشاعر فترة من اجمل فترات شبابه في باريس ، فاضطرب عليـه أفق الجنس . كان في القرية والمرأة زوج وفية ، وأخت صالحة ، وأم رؤوف لا اكثر ولا اقل ، فاذا بالشاعر الشاب يتعرف عليها في باريس بمـــا ينقض لونها القروي في بلاده الاولى. ووقع الشاعر على هذا «النقيض» وقوع من لا يرتوي ولا يشبع، فلما عاد الى القرية بعد سنوات قضاها في باريس التي كانت حياتها تمكنت من نفسه وتغلغلت في اعماقه برغبة من الشاعر وتقبل وإذعان ، اضطرب اكثر فأكثر وتألم شديداً . إن المرأة ليست كما هي في القرية فحسب زوج وفية ، وأخت صالحة ، وأم رؤوم ، وإنما هي اضـاميم الحب والملاذ كما هي في باريس ، ولكن هل يستطيع الشاعر على شيء من التبديل في هذا الواقع المؤلم في دنيا الزمان والمكان عـلى السواء ؟!..

ثم تأتي السياسة ، وتأتي معها الصدمات والخيبة : فالاستاذ نديم في السياسة — كمجنون ليلى — في العشاق ، يخسر المـال والعافية ، وغيره ينال ما يشتهي منها — على البارد — كما تقول العامة — بغير جنون ولا فنون ولا خسارة ..

وعلى كل الوجوه فالشاعر في زحمـة من هذه « الغرائب » القاسية ، وهذه — الغرائب الطبيعية — هي نواه ملحمته الشعرية « آلام» وهي التي أوحت بها ، وعلى أجوائها ترف هذه الملحمة ، إنها زمجرة الحبيس وراء عقدها، والرغبة الصادقة لتفسير معانيها.

★

والشاعر نديم مجدد بالشعر ، ولكن على طريقة « قومية » . إنه يريد التجديد ، ويحبذه ، ويعمل له باخلاص ، وإنما هو يفهم هذا التجديد ويعمل له، بحدود الموضوع ، والفكرة ، والعمق، والموسيقى — راجع مقدمة الملحمة — لا بهلهلة اللفظ ، وتشويه المعنى . يريده قومياً عن طريق نهضة عربية شاملة تنتظم الشعب العربي باسره لما فيه خيره ونعيمه ، لا قوميـاً (!) عن طريق امتداح الحاكمين ، ومهادنة الخونة والرجعيـــين ، وانه ليريد الشعر انسانياً ، بشمول اللفظ عـــلى النوع الانساني كله ، لا إنسانياً سياسياً يحوم ولا يغط إلا على مصلحته ولو على رقاب العباد ، ودماء الضعفاء والمغلوبين !..

في هذا الاطار البديع ، وعلى هذا الاساس المتين ، وبتلك الاجواء المضطربة القلقـة ، على رغائب القلب المتعطش الهائم ، وجنون الثورة العاطفية المتقدة في الجسد السقيم العليـل ، من هذه الكوى أطل علينا الشاعر الصادق بملحمته « آلام » . .

ولنسمعه وهو يتهكم ويسخر من شعراء التسول والملـــق الراكعين على الأبواب :

ورأيت النديّ بيت اناشيدي غضوباً مزمجر القسمات
ملّ شعر الزلفى — الى الحكم — واشتاق الى الفحل من قصيد الاباة
ليس كالعار من مقالك للهر : سلاماً يا سيد الغابات !

يشفق العار ان تسميه بالمجد ! لثقل الاعباء والتبعات

وكيف لا يكون ذلك كذلك ، وبيت الخلود والاشعاع لا يتسع لغير الشعراء الصادقين المصلحين :

لم يطأ سابح بفارسه النجم ، إذا لم يطر على عصماء !

وغذاء الفحولة الشوك والنار ، وتسقى بأدمع ودماء !

ويمضي بك الشاعر المبدع في زوايا المجتمع وخباياه ، ودليله النظرة الصائبة ، والفكرة الصادقة ، لا يترك مظهراً إلا وفسر لك حقيقته ، ولا مر بمنظر إلا واطلعك على مكنونه : الحاكم يخون ولا يعدل ، والمرابي يستنزف دماء اليتامى والمساكين ، المغامر الأفاق يعبث بمقدرات الاوطان ، ويدوس كرامة المواطنين ، نقائض سود ، ونقائض حمر ، تنكس راية الاخلاق وترفس صدر الحياة الشريفة ، فيضيق الشاعر النبيل بهذه الشرور والآثام ، فينزع الى مخبأ يحجبها عن ناظريه .. فاذا هو بالخمارة تنادي :

انا صاحٍ .. إلي بالخمر يا ساقي ، فعمري وهبته للخمور !

إسقني : أو تري سحائب انفاسي من السكر مثل لفح السعير

إسقني : أو يموت رأس على زندي ، وزدني عسى يموت شعوري

خمرة الحب ، والصبى والاماني والاغاريد والهوى والحبور

وأدعُ لي قينة ! وفتية لهو ليردوا إليّ عهد فجوري

فيثور الحنا ! ويجرف آلامي ويدوي كالعاصفات هديري

وهنا .. وبعد ان تحسب ان الشاعر وجد مصبه ، لا تراه الا وقد انتفض وزمجر وصاح :

الهوى ذكره رجوع الى الدمع ، رجوع الى العذاب المرير

ومعنى هذا ان الخمر بدأت تفقد مفعولها في نفس الشاعر ، فليست شيئاً مذكوراً ، فقم يا نديم ومُر الخادم بلهجة الحكيم الفاشل ليفعل ما به انبساط الألم :

حطم الكأس يا غلام .. فلن تغني عن الحب سكرة السكير !

ويلي عليه ! لقد ترك الخمارة ورجع الى منزله ، ولكن عوارض الداء الوبيل اخذت تمتص قواه وتهد جسمه . انه في فراش المرض القاتل ميت أو كالميت ، تقلبه أمه بين يديها بين اليمين وذات الشمال ، وهو في هذيانه الاخير يغمغم :

أمي : هاتي يديك .. ادنيهما مني .. دعي راحتيك في راحتيا

أمي : لا تبعدي يطف شبح الموت .. وينقض في الظلام عليا

أمي : إني اموت .. يا أم علّيني دوائي .. فربما عدت حيا ..

ويعود حياً او كالحي .. ولكن لا ليريح ويستريح ، ولكن ليضطرب ويقلق ويثور ، ويحلو له هذه المرة ان يطير الى السماء ، كما فعل « دانتي » و « المعري » من قبل ، ويتصفح « دليل الرحلة » القرآن الكريم ، كما فعل الشاعران السابقان ، وما هو حتى يطير فيبلغ الجنة ويقف بارجائها يراقب ويتبصر ! فما هذه الجنة ؟ وما هي حياة الابرار فيها ؟ انها اللهو والعبث : وصال آليّ لا حياة فيه ، ونعيم مسئوم على التكرار ، وصهباء لا تسكر ولا تصحي تحتسيها الدمى المتحركة ! وغناء لا يطرب لانه لا يحزن ! وحياة هي الجنون الذي لا يفهم ولا يُفهم ، ثم ماذا رأى في جهنم ؟ حيات ، وثعابين كل واحدة منها بعرض السموات ، وشياطين في رؤوس من اللهب ، واظافر من الشوك ، وزنيم الى جانب رجيم ، ومحافر ومهاوي من القار والنار تتخبط بها الاجسام والارواح وتذوب في لفحاتها بغير نهاية ! انه لشيء رهيب مرعب ! فليترك هذا العالم وليعد الى عالمه . وهكذا ترك السماء وعاد الى عالمه منبوذاً ، تلاحقه الطيوف الهازئة ! واخذ يفكر بسر شقائه وعذابه ، وما هو حتى رأى السر ! انه في هذا الوجود الجبري .. الذي حُملنا اليه مكرهين :

هدمتني الحياة .. اي فضول ! في يد الله .. آثم الانشاء !

في هوان العزيز عار على الخلق ، وعار على بديع السماء !

وهنا يحلو له ان يستمرىء طعم « الحب ! » ويغرق ايامه ولياليه في اعماق لجه ، فيحبو الى مقصورة حواء .. وهو من الضعف بحيث يقول :

لا يحس التراب خطوي عليه ! فكأني اسير خلف التراب !

ويقف على بابها يفلسف الحب مستغوياً :

انت مني . من قبل آدم والناس ! وقبل الانشاء والتكوين !

نحن شطرا نفس تقاذفنا البعد .. فتهنا .. ما بين : ماء وطين !

وكأن هذه الفلسفة لم ترق لحوائه ، فلم تجبه بكلمة تسعد البال ، وهنا يزمجر الشاعر مشككاً بانوثتها ، ووجودها ايضاً فيصرخ :

لست انثى ولست شيئاً من الناس .. ولكن وهم سرى في العقول !

ان لي ناظراً يرى السر في النفس ، وقلباً يحس خلج الميول !

وتضحك حواء من هذا الكلام الفارغ ، وتهز الكتفين

باستهزاء من هذا العاشق المتكبر الجاف ! وما هو حتى ينقلب الشاعر على نفسه ساخراً منها مستعطفاً حواءَه :

أشموخ ،وفي الوحول جبيتي ؟ وفخار ، والعار ملء ثيابي ؟
راودتني عشيرتي سدة الشمس ، وراودتها هوان التراب !
لو بغير الهوى يطاولني الدهر لاركزت في النجوم قبابي !
والهوى فتنة فلا يكثر الناس عتابي وما لهم وعتابي !

وهنا تحيي حواء الشاعر بقهقهة يلمع لها الشاعر فيثور منددا :

بسمةَ الرحمة الحقيرة .. لا كنت ! وأهلاً بقهقهات العداء !
انا ألبستك الخلود ، واسكنتك دار النعيم يا حوائي !

ويمد يده اليها ، فيحملها بين ذراعيه ، ويطير بها في عوالم جديدة .. لم يعرفها قبله انس ولا جان !

طرطوس — **محمود نعره**

على دروب الحياة

مجموعة اقاصيص للاستاذ رشاد دارغوث

منشورات دارغوث اخوان ، بيروت — ١٦٠ ص

تضم هذه المجموعة ثلاث عشرة اقصوصة قد يخرج قارئها منها ببعض تسلية عابرة ، ولكنه لن يحتفظ منها بأي اهتزاز شعوري عميق ، او بأية إثارة فكرية خلاّقة ، او بأية متعة فنية رفيعة .

والحق انها اقاصيص سطحية المعنى إجمالاً ، هزيلة الحبكة القصصية ، باهتة التأليف الفني .

فاما المعنى السطحي فتتكشف عنه هذه الاقاصيص التي لا تأتي بفكرة جديدة طريفة ولا تنفذ الى معنى عميق . فأقصوصة «حل معقول» مثلا كتبت للتدليل على ان المرأة تستطيع بتدخلها ان تحل اموراً طال تعقدها ، واقصوصة « وراء كل خير » تريد ان تثبت ان المرأة تستطيع ان تكون رسول خير اذا نجحت في اقناع خطيبها بألا يسافر الى المهجر طلباً للرزق ، وان يظل في بلده يشتغل ارضه،ويروي بطل اقصوصة «فينوس في مزرعة» لقاءه بفتاة اجنبية اقبلت تزور لبنان ، فصرّح لها قبل عودتها الى بلادها انه احبها ولكن دون حبّه للأرض،و«من احلام شهرزاد» تحوي دعوة الى جمع المال الذي يهدر في اطلاق الرصاص والمفرقعات في الاعياد لبناء مستشفى ، و « ابن الشارع » تدعو الى ايواء ابناء الشوارع في «حدائق عامة» .. واقصوصة « اخوة حناجر » لا ترمي الى اكثر من الاشارة الى ان التحاسد قائم في مجتمعنا ، واننا رجال اقوال لا افعال .

ثم إن الحبكة القصصية في جميع هذه الاقاصيص المجترّة المعاني السطحية هزيلة جداً ، بمعنى ان الحادثة التي تنسج حولها القصة لا تثير اهتمام القاريء او شوقه ، ولا تنم عن ابداع في الخيال او قوة في الخلق . فحبكة « حل معقول » مثلا تدور حول شجرة كبيرة احتضنتها جمعية حملت اسمها ، ولكن وجود هذه الشجرة في احد الشوارع ازعج سائقي السيارات ، فجندوا جهودهم لاقتلاعها،وتفاقم النزاع بين جمعية الشجرة ونقابة السائقين الى ان تدخلت امرأة ، فحلت القضية باقتلاع الشجرة .. وإن القاريء ليشعر بالملل اذ يقرأ هذه الاقصوصة ولا تشوقه متابعتها لبلادة الحادثة فيها . ومثل ذلك القول في اقصوصة « مذكرات خروف » من حيث الحبكة ، وان كانت خيراً من السابقة من حيث تصويرها لبعض الآفات الاجتماعية في البلاد تصويراً رمزياً .

وفي سائر الاقاصيص المذكورة تنعدم الحادثة تماماً ليحل محلها حوار بين الراوي وشخص آخر ينتهي الى تقرير واقع ، كما هو الحال في «اخوة حناجر » و« من احلام شهرزاد» و« ابن الشارع » . ولو ان في هذه الاقاصيص تحليلا نفسياً او تصويراً دقيقاً لكان بالامكان غض الطرف عن ضعف الحبكة ، ولكن ان يصبح الامر حواراً او حديثاً او بسطاً لمحاكمة عقلية ، فانه يبطل ان يكون اقصوصة فنية .

بقيت هناك بعض القصص التي لا تخلو من حبكة ، ولكنها في النهاية لا تعني شيئاً . . فأقصوصة « كرمة الجن » فيها«حكاية» طريفة تسلي ، وهذا كل ما تستطيع ان تفعله . انها حكاية شاعر يحب العزلة ويشتغل الارض ، فيستهوي غناؤه افعى تتمايل كالسكران ، وتساهره ليلة بطولها يضطر بعدها الى ان ينام النهار . ولقد اقلق القرويين ذلك النهار انه لم يخرج ، فدخل عليه احدهم ، فاذا الافعى تهاجمه وتلتف حول جسده ، ويتراكض القرويون على صوت استغاثته وتنشب بينهم وبين الافعى معركة لا تنتهي الا باستيقاظ الشاعر الذي يأخذ في الانشاد ، فتبكن الافعى وتتراخى عن جسم فريستها الذي ينسحب ، ثم يجهز عليها فيقتلها . ومنذ ذلك اليوم لم يعد الشاعر الى القرية ابداً .

ولئن كان في اقصوصة « اديب » حكاية ، فهي فارغة من اي محتوى فكري : حكاية اديب اعمى مشهور اتخذه احد الملوك مستشاراً له؛ ولكن زوجة الملك كانت تتردد عليه لتراقبه في عمله مما جعل الالسنة تنالها بالسوء. وشاء الملك ان ينتقم منها فأمر بان « تعير امرأته المتهمة احدى عينيها للأعمى الذي شك في إخلاصه ، فسلبها بذلك ضياء الجمال ، وأفقده نور العقل ، وكتب اسمه في لوحة الخالدين من الظالمين ! » . وليس لـ « عودة الغائبة » فكرة واضحة ، وأما « زارع الاكي دنيا » فحكاية تاريخية للأطفال .

وهذه الأقاصيص جميعاً لا تمثل ، بعد ذلك ، أية قيمة فنية؛ فهي لا تخلق مثلاً اي «جو نفسي» خاص ، ولا تحلل أية شخصية هامة ، ولا تصور نماذج بشرية متميزة ؛ ومما يزيد في إضعافها فنياً ارتفاع لهجة العظة والدرس ، هذه اللهجة التي لا تستنتج من حادثة أو سياق او قرينة ، وإنما تسمع في الحوار.

وهكذا يبدو للقاريء جلياً ان المجموعة تتألف من اقاصيص سطحية تافهة ذات حبكة هزيلة . وهي كما قلنا ربما كانت تسلي ولكنها لا تعلّم شيئاً ولا تثير شعوراً إنسانياً ولا تهزّ إحساساً فنياً . إنها ترود السطح ولا تسبر الغور . وإذا صورت جانباً من واقع ، كانت وثيقة باردة لا تستشرف المستقبل وليس فيها اي نزوع خلاق. ونحسب ان المؤلف لا يكتب عن «ضرورة» أو عن «حاجة» لا بدّ له أن يستجيب لها ، وإنما يكتب عن رغبة في التسلية ليس غير؛ وهذا هو الشعور الذي يبعثه لدى القاريء وقد شعرنا بمثله في « خطيئة الشيخ » و « الحاج مجبح » .

بقيت لغة المؤلف ، وهي دون ريب لغة جميلة سلسة صافية . ولكن ما عساها تكون قيمة وسيلة التعبير في أثر لا قيمة فنية له ؟

سهيل ادريس

إذا عاد المساء...

قصة جديدة بقلم محمد سعيد هاشم

— لكم هو طويل هذا الشارع يا اماه !

فأجابت الام على الفور بلهجة جافة قاطعة :

— سنصل ..

عند ذاك رفع الصبي رأسه الصغير وحدّق في وجه امه مستفسراً وهو يلهث من التعب إذ كان يتابع خطوات امه الكبيرة بخطواته الصغيرة السريعة فيبدو كالراكض . ولم يستطع حبس الكلمات التي تجمعت في رأسه ، وقال بصوت مرتجف كمن يتوقع شراً مستطيراً :

— أين ؟

التفتت اليه امه وزمت شفتيها بقوة ، ورأى الصبي عينيها تلمعان ودموعاً تترقرق فيها . فنظر اليها منتظراً الجواب ، لكنها لم تحر جواباً ، وإنما عادت تنظر إلى الامام في الدرب الطويل ، وشعر الصبي بقبضة امه الكبيرة تشد على يده بقوة اكثر من ذي قبل ، وها هي تزداد قوة حتى أخذ يشعر بخدر يسري في كفه الصغيرة ، فود لو ينبه أمه إلى ذلك لكنه خاف من عينيها الدامعتين فصمت . وتابعا السير في ذلك الشارع الهادىء . كان الصبي يتمنى لو تكلمه امه وتطيل التحدث اليه ، لو تقص عليه بعض القصص كما كانت تفعل من قبل ؛ لكنها بدت في هذه الليلة جامدة لا تنطق بكلمة ولا تفكر في الصبي أبداً بل في أشياء اخرى . وإلا لمَ لا تكلمه عن العفاريت ؟ أو على الاقل تخبره إلى أي محل يسيران ؟! وتذكر ليلة أمس التي قضياها قرب الجامع القديم ، وقد افترشا الرصيف العام . كان الصبي في أول الليل فرحاً وقد نام عن كثب من أمه لا يأتي بأية حركة ، لكن ما إن قرب الفجر حتى أصبح الجو قارساً لا يحتمل ، فسرت في جسده رعدة باردة ، وودّ لو يتغطى بشيء دافىء ، لحاف مثلاً ، أو بطانية صوف سوداء ، أو حتى حائط الجامع هذا ، فدسّ جسمه الصغير بين يدي امه التي استيقظت في الحال فزعة وزعقت بوجهه ثم استوت قائمة .

لمح الصبي الجامع القديم ، فهمس في نفسه « لا بد أننا سنقف هنا كالبارحة » لكن الام لم تتوقف وإنما سارت إلى الامام تسحبه بيدها الغليظة . ونفد صبر الصبي فقال بصوت متقطع :

— هذا .. الجامع .. ماما ..